المحاضرة الأولى:

تمهيد:

لا يمكن للإنسان أن يستغني عن البعد الجمال في مختلف نواحي حياته ،ذلك أن النزوع نحو الجمال، طبيعة متأصلة في كينونته، إذ نلاحظ عبر التاريخ وجود آثار فنية وجمالية تعكس هذه الطبيعة، فبعد أن يحقق الإنسان غرائزه الحيوية، يسعى إلى إضفاء مسحة جمالية على حياته. فلقد اهتم الفراعنة القدماء بتلطيف حياتهم اليومية بمسحة جمالية. سواء تعلق الأمر، بإتقان الزخرفات والنقوش على معابدهم و على ومعبوداتهم، وسواء تعلق الأمر، بتزيين بيوتهم وأناقة ملابسهم. فان هناك حقيقة لا مراء فيها، إن الاهتمام بالفنون الجميلة هو مستوى من التحضر الفكري والثقافي تصل إليه الأمة بعد مسيرة حضارية طويلة. وإذا غضضنا الطرف عن ارتباط الفن المصري بالدين وبالحياة الأخرى، يمكننا القول إن الفن المصري جاء ليشبع حاجيات الإنسان الروحية. ونجد أيضا، في تاريخ الحضارات، تعلق اليونان والرومان والصينيين، بالفنون الجميلة. ولقد تعددت وظائف الفن في هذه الحضارات، فنجد مثلا الوظيفة الأدبية المرتبطة بالشعر والخطابة، ونجد الوظيفة العمرانية، حيث يرتبط الفن هنا، بتزيين البيوت والحدائق والقصور. وإذا قفزنا إلى العصر الحاضر، نجد أن هناك اتجاهات وتيارات مختلفة حول تصور الجمال والفن في حياة الإنسان ولعل اختلاف هذه التيارات يرجع إلى اختلاف الأسس الفلسفية التي تنطلق كل واحدة منها. والسؤال الإشكالي الذي يطرح: ماهي ابرز اتجاهات فلسفة الفن الحديثة والمعاصرة؟ وكيف تبلور مفهومها للجمال ؟ وماهي الوظيفة التي يأخذها عند كل اتجاه فكري؟

في مفهوم الفن والجمال وعلم الجمال:

اختلف الفلاسفة وعلماء الجمال في تحديد محدد للفن والجمال وعلمه، فكل فيلسوف له تعريفه الخاص لها، وكل مدرسة فلسفية لها تصوراتها حول هذه المفاهيم الثلاثة. ومع ذلك يمكن أن نميز بين الفن عن الجمال ، باعتبار الفن هو صنعة ومهارة و فاعلية يقوم بها الإنسان في اشتغاله وعمله على المواضيع و الأشياء ففن النحت يقوم على تحويل الرخام إلى تماثيل ومنحوتات، وفن الرسم يحول الألوان والبياض إلى منظر ومشهد فني، كما أن فن الموسيقى تحويل الأصوات الالة والمختلفة إلى قطعة موسيقية، وفن الخياطة يقوم على تحويل القماش إلى ملابس وأزياء، وفن الطهي يقوم على تحويل الخضر والتوابل والزيت إلى طعام شهي...وهكذا. فالفن هو مهارة وصنعة تحتاج إلى تأمل وتفكر وخيال.

أما الجمال فيتعلق بصفات وخصائص تتعلق بالموضوع او بالشيء الذي نحكم عليه.من حيث جاذبيته او من حيث قيمته لدينا. ويقسمه الفلاسفة إلى نوعين: فالجمال الطبيعي يتعلق بمناظر الطبيعة، او.. برائحة زهرة وبلونها و باخضرار شجرة .... أما الجمال الفني فيتعلق بالحكم على هذه اللوحة الفنية أو على تلك القطعة الموسيقية بأنها تتمتع بالجمال.

أما علم الجمال فيتعلق بالقواعد وبالقوانين والتقديرات الذوقية التي تجعلنا نحكم على هذا الشيء بالجمال وعلى ذاك بالقبح ، او نقول بأن هذه القطعة الموسيقية أجمل من تلك. إلا أن هذا العلم له خصائص تخصه وهي:

١ -علم الجمال نسبي وتقديري يختلف من فيلسوف إلى أخر ومن ثقافة لأخرى.
٢ -يخضع الجمال إلى أحكام ذوقية تختلف من حكم جمالي إلى أخر وبذلك يكون علم الجمال بعيد عن الرياضيات.
٣ - ينتمي علم الجمال إلى مجال القيم والأذواق، حيث لكل ثقافة ولكل شعب ولكل فرد أذواقه وقيمه.

١ -**<u>الاتجاه المثالي :</u>**

تعود الجذور الفلسفية للاتجاه المثالي في الفن، إلى أفلاطون (**427ق م-347ق م**) إذ يتصور أن عالم المثل هو العالم الحقيقي وان عالم الحس ليس إلا ظل له. فالحق والخير والجمال من سمات عالم المثل أما القبيح والمشوه والمتغير والناقص فهي موصولة بعالم الحس. فإدراك الجمال الحقيقي هو إدراك للمثل أو إدراك للمثال أو الفكرة في ذاتها أما ما يتعلق بالفنون التي ترتبط بالمحاكاة والتقليد ليست إلا صور ناقصة ومشوهة وليس منها إلا قليل من الجمال فمن يريد أن يعرف الجمال حق المعرفة عليه أن يتطلع إلى مشاهدة المثل ببصيرته وخياله وممارسة التذكر الصحيح. ذلك أن الروح الإنسانية كانت تعرف المثل لما كانت بصحبة الآلهة وعرفت الجمال ولما انكسرت أجنحتها وسقطت في الجسد نسيت الجمال الذي عرفته في الماضي.

هذه الرؤية المثالية تستعاد مع هيجل (**1770م-1830م**) من ابرز ممثلي النزعة المثالية في الفلسفة الحديثة حيث يعتقد هيجل إن العالم في النهاية ليس إلا تطور للروح وان الروح المطلق في العالم قد اخذ تعيينات وتجسيدات مختلفة عبر التاريخ ويعتبر الفن أولى تعيينات الروح في تطوره التاريخي فالعقل لا يولد دفعة واحدة، بل يمر تاريخيا بداية من الفن والدين وصولا إلى الفلسفة أو بعبارة أخرى، إن الروح المطلق حتى يستطيع إن يظهر ويتبين ويتجلى عليه أن يتجسد في العالم عبر تشكيلات وتعيينات تاريخية من بينها الفن ثم الدين ثم الفلسفة. ولا شك، أن هذه النظرة الفلسفية المثالية، قد أثرت

على فلسفة الجمال عند هيجل ، حيث نجد هنا، تمايزا بين الفكرة أو الروح أو العقل من جهة، وبين العالم والتاريخ والواقع من جهة أخرى، حيث نلحظ أن الروح المطلق بالمفهوم الهيجلي مفارق ومنفصل عن الواقعي والعيني، فليست الفكرة هي التي تستجيب للواقع بل على الواقع ان يخضع لمسيرة الروح يقول هيجل" الجمال نمط معين لتمثيل الحقيقة وإظهارها في طابع حسي" .

بالنسبة إلى هيجل الجمال الفني أسمى من الجمال الطبيعي. ذلك أن، الجمال الفني هو نتاج للروح الإنسانية بينما يمتاز الجمال الطبيعي بالضرورة والقوانين. خاصية الجمال الفني من جهة انه فاعلية إنسانية ممزوجة بالعقل وبالحرية ولهذا بالنسبة إلى، هيجل الجمال الطبيعي ليس له أي معنى فني بالمقارنة مع الجمال الفني ذلك أن الفن هو نتاج لفاعلية إبداعية الإنسان وحريته وخياله وذاتيته. انه بعبارة أخرى، نتيجة لخيال الإنسان وما يقترن به من إبداعية و حرية على العكس من الجمال الطبيعي الذي تحكمه الحتمية والضرورة. كما أن الجمال الذي في الطبيعة ليس إلا مجرد انعكاس للروح، فالإنسان هو الذي يضفي على مناظر الطبيعة أحكامه الذوقية يقول هيجل " لذا كان الجمال الفني أسمى من الجمال الطبيعي لأنه نتاج الروح، إن كل ما يأتي من الروح أسمى مما هو موجود في الطبيعة وأسوء فكرة تخطر على بال إنسان لهي أفضل وأروع من أعظم إنتاج للطبيعة وهذا بالتحديد لأنها تصدر عن الروح "

أما فيما يتعلق بوظيفة الفن عند هيجل فتتعلق بتجسيد الأفكار والمثل في تمثيلات حسية ورمزية ولا يخرج الفن من هذه الوظيفة حيث يصبح معبرا عن الفكرة المطلقة أو الفكرة المثالية ولا يجب أن يرتبط اشد الارتباط بالواقع التاريخي الذي هو بغير مغزى فعلى الفن أن يسعى لفهم روح العصر وفهم العقل المطلق من اجل تجسيده في فنون مختلفة كالشعر والعمارة والموسيقى.

يظهر من خلال ما سبق أن هيجل أهمل من مكانة الجمال الطبيعي ذلك أن الكثير من الفنانين والفلاسفة استلهموا إحساسهم بالجمال من الطبيعة وأنها هي التي علمتهم التفكير الجمالي من خلال تأملاتهم عليها كما أن وضع فارق بين الفكرة في ذاتها والواقع الإنساني اليومي سيجعل من الفن المثالي يغرق في التجريد والمثالية الجوفاء والرمزية الغامضة فليس كل الناس بإمكانهم فهم الأشكال الفنية المثالية ولا يستطيعون فهم الروح المطلق وهذا يرجع في الحقيقة أن الفن عند هيجل ليس إلا مرحلة بدائية من تطور الوعي الإنساني ولا يوازي في قيمته الفلسفة . أن المجال الجمالي شكل ممكن للمعرفة وأن العلاقة الجمالية هي علاقة الإنسان بذاته . ولذا فهو لا يعير الجمال الطبيعي أهمية كبرى .وبين هيغل أن الفن والعلم أسلوبان لتحقق

الفكرة الموضوعية . إن الفكرة المطلقة بعد أن تتخذ شكلًا خاصًا في الطبيعية تشرع تعود إلى ذاتها أولا في الدين بوصفه تصورًا خياليًا، ثم إلى الفن بوصفه رؤية حسية، ثم إلى الفلسفة بوصفها فكرًا خالصًا مجردا"

2-الاتجاه الرومانسي :

ينطلق أصحاب الاتجاه الرومانسي في تصورهم للفن من ثنائية الذات و الطبيعة، حيث يعلون من شأن الذات الإنسانية في اختراع وابتكار الفن الجميل كما أنهم لا يهملون دور الطبيعة في الهام الفنان بإحساسات جمالية ومن ابرز ممثلي هذا التيار جون جاك روسو (**1712م-1778م**)،وفريديريك شيلر (**1759م-1805م**) ، وفريديريك شيلينغ الفيلسوف ألماني (**1775م-1854م**)،

من مسلمات الرومانسية الإعلاء من دور الخيال في ابتكار الأعمال الفنية حيث يسمح الخيال بتشكيل عوالم إنسانية تسود فيها كل القيم الغائبة من الواقع الإنساني، فالفنان لا يعيد رسم المنظر الطبيعي كما هو. بل، يعيد رسم مشهد يظهر فيه قيمة أو معنى غائب وبعبارة أخرى، الفنان الرومانسي يبتكر ويخلق طبيعته الخاصة فإذا كانت الطبيعة صماء بغير معاني فان خيال الفنان هو الذي يمنح لمظاهر الطبيعة معانيها ودلالاتها ولدينا نص لشيلر يؤكد فيه مهمة الفنان الرومانسي يقول :"كيف يتأتى للفنان أن يؤمن ذاته ضد أوجه الفساد الفاشية في عصره والتي تحيط به في كل مكان؟ إن ذلك إنما يكون بالترفع عن دنايا العصر وما يعتقده . إنه يلزمه أن يتطلع عاليا نحو مكانته العليا ونحو القانون، لا أن ينحط إلى درك الصدفة والحاجات اليومية. وعليه أن يتحرر من الفاعلية التي لا تجدي شيئا والتي إنما تطبع- بيسر وراحة- بطابعها على اللحظة العابرة والسريعة للزوال. وكذلك عليه أن يتحرر من الروح التواقة إلى التطرف وتجاوز الحد، وهي تلك الروح التي تأخذ بتطبيق معيار المطلق على ما ينتجه العصر من آثار تبعث على الأسى والحزن، وعليه أن يعتزل دائرة ما هو واقعي لينخرط في دائرة ما هو عقلي، حتى يكون موطنه ، فحسبه أن عليه أن يناضل من أجل تحقيق المثالي من خلال التوحيد بين الممكن والضروري، وعليه أن يطبع المثالي على الوهم والحقيقة، وأن يصوغه فيما يصدر عن خياله من لعب وفيما يصدر عن جده من أفعال، وأن يضرب سكته في كل قالب حسي وروحي ويطلق المثالي في أجواء الزمن اللامتناهي."

كما أن الرومانسية تعلي من شأن القلب في استلهام الجمال، والقول بالقلب باعتباره ملكة للإلهام جاء كردة فعل ضد التصور العقلاني والتجريبي في نظرية المعرفة ، فليس بإمكان العقل كما تصوره ديكارت واسبينوزا أن يعطينا معرفة تليق بالإنسان في مختلف إبعاده وليس بإمكان التجربة أن تعطينا فهما عميقا بالحياة فالعقل والتجربة مقتصران فقط على حساب وفهم المادة والجسم والكواكب أما القلب فهو الملكة التي تسمح لنا بفهم عميق للإنسان لأنه يقيم في داخل أعماقه من خلال الحوار الداخلي ولهذا نجد الرومانسيين مثل جوته وفيكتور هيغو وتشارل ديكينز قد اظهروا الجوانب الإنسانية والعاطفية والوجدانية في رواياتهم الأدبية وهذا ما يجعلنا نؤكد أن التصور الرومانسي في نظرية الفن يجعل من العاطفة والحدس والخيال والإلهام مقولات أساسية في الإبداع الفني ذلك أن الرومانسية جاءت كردة فعل ضد التجريبية والعقلانية التي أرادت وضع الإنسان في تصور علمي وآلي أصم يشبه الآلة أو الجماد، يمكن القول إن النظرة الرومانسية هي ثورة وتمرد ضد التفسير العلمي الأحادي للإنسان وهي بذلك قد فعلت مقولات وجوانب رفضها العقل العلمي كالعاطفة والخيال والحدس .

وظيفة الفن في المدرسة الرومانسية:

١ -الإعلاء من شان الطبيعة بالتقليل من قيمة المدنية والعلم والعقل وهذا يظهر في تركيز الفنان على رسم المناظر الطبيعية، تصوير الطبيعة في الروايات واستنطاق مناظرها بما يخدم الحبكة الروائية

٢ -يعمل الفن الرومنطيقي على إبراز العواطف والبعد الوجداني والمأساوي في حياة الإنسان وإظهار الكائن المتمدن في مختلف ممارساته الوجدانية من حقد وجشع ورحمة وأنانية وقسوة

٣ -ليس الفن عند الرومانسيين من اجل استنساخ الحياة اليومية فقط بل من اجل تحسينها ومن اجل أيضا الثورة ضد القيم السائدة بإظهار تفاهتها وقسوتها

٤ -يعمل الفن على إبراز الروح الإبداعية للفنان فالابتكار بواسطة الخيال هو عمل الفنان ولهذا يعتبر الخلق الفني المهمة الأساسية للرومانسي يقول شيلينغ "مما لاشك فيه أن المطلب الأساسي للرسم هو الحقيقة وليس لهذا من معنى إذا اعتبرنا الحقيقة هنا مجرد محاكاة للطبيعة. لذلك كان لزاما على الفنان الذي يسعى للوصول إلى الحقيقة أن يبحث عنها بصورة أعمق مما هو موجود في الطبيعة وما تبرزه لنا الأشياء الموجودة. ومن ثم يجب أن يكشف باطن الطبيعة".

٥ -النظرة الرومانسية تعمل على مصالحة الإنسان مع ذاته وتقريبه من الطبيعة وتعليمه وتدريبه على ممارسة القيم الفاضلة

نقد وتقييم:

ولكن المغالاة في دور العاطفة والخيال والحدس في الأعمال الفنية سيجعل الفنان بعيدا عن الواقع الذي يعيشه الإنسان حيث سيحيا منفيا عن عصره وراهنه ويغرق في تصوراته الخيالية وهو بذلك يبتعد عن حاجيات الواقع ولا يستطيع فهم سيرورة الحاضر صحيح أن الإنسان لا يمكن أن يستغني عن العاطفة والخيال ولكن الاستغراق فيهما يبعده عن معايشة عصره